لاقوة الا بالاتحاد (١)

كونوا جميعا يابني اذا اعترى　　خطب ولا تتفرقوا آحادا
تأبى القداح اذا اجتمعن تكسراً　　واذا افترقن تكسرت أفرادا

(أكثم بن صيفي)

أنشد الحكيم العربي هذين البيتين عندما شعر بدنو الاجل . فلخوفه على أولاده من التفرق دعاهم لسماع وصيته الاخيرة. وكان قد استحضر اضمامة من السهام فطلب اليهم ان يكسروها فلم يقدر واحد منهم على كسرها. ثم بددها فاستسهلوا كسرها فقال لهم: كونوا مجتمعين ليعجز من ناوأكم عن كسركم كما عجزتم عن كسرها. فاذا تفرقتم سهل كسركم وضاع قدركم وهان أمركم. فياحبذا لو اتخذ العرب بشعر حكيمهم وانتصحوا بأنفع النصائح. اذاً لما فقدوا الملك والخلافة. واشتغلوا عن الحوادث والحدثان بأحاديث خرافة. فبين التنازع والتقاطع خربوا مملكتهم بأيديهم وقد كانت أعظم مملكة طلعت عليها الشمس، وبينما كانوا أسياد الشعوب اذا هم عبيد الترك والروم . لكنهم صبروا على الاهادي وصبروا غور الموادي. فوقاهم تعلقهم بأهداب عروبتهم وتمسكهم بأستار كعبتهم . فحفظوا بكتبهم وأقلامهم ما كان دونه تكسير سيوفهم، وتنكيس أعلامهم . فالحمد لله على بقاء القوة كامنة في صدورهم ليبنوا قصورهم على قبورهم . وان في حفاظهم على العصبية أساس الوحدة العربية

لا قوة بلا اتحاد ولا اتحاد بلا اتفاق وانما الاتفاق بحسن التفاهم وصدق التساهل وذلك ميسور للذين رجحت أحلامهم وكرمت اخلاقهم . فعلى العرب ان يتفقوا ويتحدوا بالتي هي أحسن للتلافي التي هي أقبح . والا اعتلت عربيتهم وانحلت عصبيتهم، فأصبحوا لا يعرفون أوطانا ولا يرفعون أعلاما. السيل الاوربي يكاد يطغى عليهم ويفرقهم كما تفرقت أيدي سبإ . وانه لأكثر خطرا وأشد هولا من سيل العرم الذي

(١) للكاتب الفاضل «الوليد بن طعمة» صاحب الروح العربية العالية عن العدد ١٤ من «سورية الجديدة» الصادر في البرازيل في أول ايار (مايو) سنة ١٩١٩

أجحف التبابعة ومزّق ملكهم فليتنوا له من لسانهم وقرآنهم سدّا امتن من سد مأرب. وما استناموا الى الاوربيين رأوا منهم أصلالا وثعابين . وكفى بنكبة اخوانهم عرب الغرب عبرة وانذاراً . ومن فظائع الصليبيين في الماضي يعرفون مقدار فجائعهم في الآتي، فما أقرب الغد من الامس والخطر أدنى من قاب قوسين . الفرنج يضربون أخماسا لاسداس ويستضعفون العرب لتخاذلهم . فلا قوة لهم الا باتحادهم وتوحيد حكامهم وبلادهم

قيل ان زرقاء اليمامة كانت تبصر الشيء من مسير ثلاثة أيام . فجهز حسان ابن تبع جيشاً وسار الى غزو قومها جديس . فصمدت ونظرت الى الجيش فرأت كل رجل قد حمل شجرة ليلبسوا عليها فقالت أتتكم ياقوم الاشجار أو أتتكم حمير فلم يصدقوها ولم يستعدوا حتى صبحهم حسان فاجتاحهم . واني لقومي نذير لئلا يحل بهم ماحل بقوم الزرقاء . لقد علموا أن بين زرق العيون وسودها عداوة جرائمها في العروق فكيف بركن العربي الى الفرنجي وهو المدو الازرق وبينهما من المباينة مالا يزول بالملاينة . فليحذر العرب خشونة القلانس بعد ليونة الملامس، ان الفرنج يصانعونهم لينالوا منهم أربا ثم يقولون لا نعرف عربا . المثل يقول : من جرب مجربا كان عقله مخربا . فأي شعب لم يجربهم ويتأكد أن أعمالهم تخالف أقوالهم فاذا دخلوا أرضا مزقوها واذا حكموا أمة مزقوها . وبعد ما تركز أعلامهم وتفرز أقدامهم يستبدلون العنف من الرفق والقوة من الخدعة . فويل للعرب من الفرنسيس والانكليز اذا لم يوحدوا كلمتهم توحيدهم لله

لو حفظ العرب عصبيتهم في الاسلام كما حفظوها في الجاهلية لظلوا حتى اليوم أهل السيادة والقيادة . لكنهم أضاعوا الدولة والخلافة بتحكيم الغرباء وتسليم الامور الى الدخلاء، فأصبحوا محرومين من ملك بني على أجسادهم وأكبادهم ، وصار الى الفرس والترك ولاكراد ما فتحته سيوف أجدادهم. والبلية من سياسة الخلفاء الخرقاء بتقديم العجم على العرب واعتمادهم على المماليك في السياسة والحرب ، فلو جعلوا الاحكام للعرب دون غيرهم لصانوا شرفهم وشرف العروبة والخلافة . وقد ظنوا دولتهم اسلامية تقوم بالمسلمين من جميع الشعوب . فما كان الاسلام شافعاً لهم عند نزوة

الشعوبية ونعرة العصبية . وهكذا أسقطوا العرب وأبعدوهم فسقطوا اذ لا حياة للدولة الا الذين بنوها . والدولة التي يتربع في دستها الاجانب صائرة الى انحلالها واضمحلالها . لما قتل باغر التركي المتوكل على الله رثاه المهلبي بقصيدة قال في آخرها يخاطب بني العباس

فلو جعلتم على الاحرار نعمتكم　　حتمتكم السادة المركوزة الحشد
قوم هم الجذم والانساب تجمعكم　　والمجد والدين والارحام والبلد

لقد صدق المهلبي فليس للمرء الا أهله وقومه في الشدة . ان معن بن زائدة الشيباني قاتل المنصور مع ابن هبيرة نصرة لبني أمية . فاشتد طلب المنصور له وهدر دمه فاختفى زمناً طويلا وبعد ماقتل المنصور أبا مسلم ثار عليه الراوندية وقصدوا قصره ليقتلوه ، فبرز البطل العربي معن بن زائدة متلثماً وقاتل العصابة الفارسية وحده حتى ظفر بها ومزق شملها . فتمرد الفرس على الخليفة العربي أنساه العداوة ، فصان وقار الخلافة والعرب ، وبما عنده من النخوة العربية والغيرة العصبية ركب مركبا خشناً وأبلى بلاء حسنا ، فلو كان حول الخلفاء حاشية وجند من أحرار العرب لما تطاولت اليهم أيدي الغلمان والمماليك . وقد كان سقوط الدولة العربية لبعد العرب عنها وتفرقهم وانقسامهم ، فالدولة لاتقوم الا باتحاد الاصلاء وابعاد الدخلاء

عسى أن يكون للعرب عبرة من الماضي فيجددوا ويؤسسوا دولة عربية خالصة فيها تخلو من الشوائب تجلو كل النوائب . ويصير العربي سيداً واليه العقد والحل والنهي والامر تصدر الاحكام وتصدر الحكام من العرب للعرب في كل أرض شرفت بالعروبة وتشرفت بالاستعراب ، وبحكم الشرع يكون فيها عربيا كل مولود ومكتوب ومصكوك . وتظلها الراية التي طالعت من بطحاء مكة سوداء خضراء بيضاء ، لقد كان سوادها وقاراً واخضرارها رجاء وبياضها هدى وسلاما . فتحتها يجب ان يتم اتحاد العرب في الشرق والغرب وهي المشرع واليها المهرع . ولا عزة للمسلمين من غير العرب الا بها لانها راية الخلافة العظمى ، فما أحراهم بأن يتراجعوا اليها ويقسموا اليها اليمين عليها مستعربين لغة كما استعربوا ديناً ، ان باندماجهم في أمة الرسول شرفا لهم فوق شرف ، هكذا تنبسط الدولة العربية الكبرى ولها جناح في

المشرق وجناح في المغرب ، فيرسوا أصلها وتمتد فروعها بجيش مرصوص وأسطول مرصوف ، فتظل عربية عربا لا دخلاء فيها ولا غرباء

على العرب ان يحققوا هذه الاماني ولو كانت دونها المنايا ، تاريخهم مكتوب بدم أجدادهم فليكتبوا بدمهم وصية لاولادهم ، فاذا عجزوا عن اتمام خطتهم أتمها الآتون بعدهم فللشعوب آجال تقصر عندها أجيال ، وما كان العرب ليخشوا محذورا اذا طلبوا محظورا ، انهم جبارون أصحاب بأس و بطش ونجدة وشدة فلو كانوا متحدين متعاونين لسدوا كل ثغرة وصدوا عدواً له شرفمرة . فطالما حاربت قبائلهم دولا ذوات جحافل وأساطيل ، فأطلقوا الاعنة وشرعوا الاسنة نحو قذافة النار ، فكانت سواعدهم أشد من قوهات المدافع وأفتك ، فشهدلهم أعداؤهم بالبسالة والنصر ، والفضل ما تشهد به الاعداء ، أجل ان الاعاجم يرهبونهم على افتقارهم وتفرقهم فكيف اذا وحدوا أوطانا واتحدوا أعوانا ، حينئذ تكون لهم أيام كأيام حليمة وذي قار واليرموك والقادسية وشريش وعروبة ، فما أكبر ذلهم في خضوعهم للترك والروم بعد شرف راسخ ومجد باذخ ، وقد كانوا في جاهليتهم أسيادا وابطالا فلم يجسر الغزاة على وطء أرضهم وهي كمرينة الاسود ، فوقف غزاة الفرس واليونان والروم متأهبين متهيبين على حدود البادية الرهيبة ، وظلت الامة العربية بكرا حرة في رمالها وجبالها

كانت قوة العرب بشدة اتحادهم وصحة اعتقادهم لا بكثرة العدة والعدد ، فقد كسرت شراذمهم جيوشا جرارة وفتحوا في ثمانين سنة مالم يفتحه الرومان في ثمان مئة وكانوا يتغلبون بصبرهم واقدامهم واتحادهم على القواد المجربين والاجناد المدربين . فحكموا مئة مليون من البشر وعددهم لا يربي على مئة ألف ، وكانت أوامر الخلفاء تصدر في دمشق و بغداد وتنفذ في الهند والصين والاندلس ، وقد حدد أبو تمام دولة الخلافة في أيام المعتصم ببيت من قصيدة مدحه بها قال

فعقد لهارون الخلافة انه سكن لوحشتها ودار قرار

والصين منظوم بأندلس الى حيطان رومية فملك ذمار

هذه حدود الدولة العربية التي شيدها جبابرة العرب فهدمها عماليكهم وما رممها صعاليكهم . وقد كان أوائلهم متمسكين فأصبح أواخرهم بالذات متمسكين . ولما

صاروا أحزابا غدت مملكتهم أقساما ، فطمع بها الطامعون وليس للفتنة قامعون ، وكانوا متحاسدين في الرئاسة ، متخالفين في السياسة ، فضعفوا بتقاتلهم وتخاذلهم وعاونوا أعداءهم على نفوسهم ، وما فقدوا ملكهم الا لانهم أرادوا أن يكونوا جميعهم ملوكا وأمراء ، وتلك عزة عربية لا تزال حتى اليوم حائلة دون اتفاق أمرائهم

لا تقوم للعرب قائمة حتى يوم الدين اذا لم يعتصبوا على الاجانب ، وربما ذهبت لغتهم وأخلاقهم وأوطانهم بعد ذهاب دولتهم ، فللروم كرة بعد كرة في حرب صار فيها العربي حربيا ، ان في قصيف المدافع مواعظ لهم فليتهم يتعظون ، وان يكونوا ضعفاء في الحكم لتكن لهم قوة من بغض أعدائهم وحب بعضهم لبعض ، ان من البغض لقوة أكبر من قوة الحب عند اصطدام المنازع ، فاياهم والاغترار بمواعيد الاوربيين فالافاعي مالسة جلودها حادة نيوبها ، انهم يظهرون لينا حتى اذا فازوا وحازوا قبضوا بايد من حديد فلا تنعتق الامة الضعيفة من الرق ولا تنطلق من الاسر وقد حجروا عليها وحجزوا سلاحها ، يمنعون السلاح ويكالسلم يبيعونه أحقر الجمهوريات الاميركية وأصغر الممالك الاوربية ، فبيعه حلال عندهم لاهل الجبل الاسود في أوربة وأهل البرغواي في أميركة ، ولكنه محرم على الشعوب الافريقية والاسيوية التي ملكوا نواصيها ، وبعد شك سلاحهم ينزعون ما عندها من السلاح ويمنعونها من أن تصنع أو تشتري ، فتصبح عزلاء تحت رحمتهم وقد أحاطت بها القلاع والمدافع فويل للعرب اذا علق العرق الفرنجي بارضهم فامتد واشتد

لقد ناموا مستسلمين الى الاقدار والاوربيون ينصبون أشراكا ويطرحون شباكا ، ولما استيقظوا أبصروا الاساطيل تدمر ثغورهم والمدافع تحصد صفوفهم ، فايقنوا أن لاطاقة لهم عليها بسيوف رقيقة ورماح دقيقة ، وقد جنى الاتراك على نفوسهم وعلى العرب لانهم ضعفوا وأضعفوهم معا ، فوثب الفرنسيس والانكليز عليها وعاثوا في بلادهم وعبثوا بحرمتهم فهلا علم العرب أن لاحق الا بالقوة وبالقوة وأن لاقوة بلا اتحاد ؟ لاريب بأنهم ضعفاء اليوم ولكن لهم قوة باتحادهم فوق قوة السلاح فليجمعوا آمالهم وعواطفهم كما جمع الاوربيون قواصف تنثر قذائف ، فبعد الحفيظة والحفائظ يرون فجر الحرية منبلجا وجيش العبودية منفلجا ، واذا توسلوا بالقوة

الادبية توصلوا الى القوة المادية ، فعلى هذا المنهج سار الذين كانوا من المغضوب عليهم والضالين ، فلتشغل العروبة نفوسهم كما تشغل الفرنج بلادهم ، فإما ان يعيشوا عربا واما ان يموتوا عربا

أليس من الغبن والحيف ان تلم أحدث الامم شعثها ، ولا ترى أقدمها وأشرفها بعد الموت بعثها ، أما كفى الامة العربية شقاؤها بحكم الترك حتى تصير أشقى بحكم الروم ، الله أكبر على الذين يمزقون بلادها ويفرقون أولادها ، فلا سبيل الى العزاء والصبر لا يفرج الهم والخطب قد ادلهم ، وانى ذلك والعرب البيض الوجوه الشم الانوف عبيد وقد صار الزنج في أميركة أحرارا ، الا تكون لاعظم السلالات دولة حرة جامعة ولاحقرها دول شتى في القارتين الاوربية والاميركية ، ألا يشفع للعرب فضلهم على الافرنج بما أخذوه من مدنيتهم وعلومهم وآدابهم ، ألا يعرفون لهم جميلا بدماء أهرقوها وأكباد أحرقوها في الذود عن حياضهم ؟ لا ورب الكعبة فالحق يعرفه المرء ضعيفا وينكره قويا ، فقل للعرب اتحدوا لتصيروا أقوياء وانتصفوا من أهل القوة بالقوة ، فقد قال الله تعالى في كتابه الكريم (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) لا خلافة لكم في هذا الخلاف ولا دولة والخصام بينكم والاعاجم خصومكم فشيدوا دولة ذات عز وسلطان ولا ترضوا بالسلطة الا من السماء ، بئست الحكومة اذا كان الاجنبي فيها حكما وبئس الخليفة اذا كان صنما لا جلال ولا مهابة للخلافة الا بأمثال عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وهارون الرشيد وعبد الرحمن الناصر ، ولا منعة للدولة الا بأسطول يحمي الثغور ويخوض البحور ، وأمير مثل حميد بن معيوب الذي عقد الرشيد له اللواء ، ولا سطوة للملك الا بخميس يقوده أمثال خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وأسد بن عبد الله ومحمد القسري وموسى بن نصير والحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم ويزيد بن مزيد وأبي سعيد محمد بن يوسف

باتحاد العرب واتفاقهم تتألف الدولة العربية الكبرى ، فنعم الحجاز واليمن ونجداً والشام والعراق والموصل وديار بكر ، وتنضم اليها كل أرض تغلبت فيها العروبة وكل أرض أراد أهلها ان يستعربوا ، هذه خريطة الدولة العربية في آسية حتى توضع لها

خريطة في افريقية فتسيطر في الشرق والغرب ، وتنتظم البلاد العربية انتظام البلاد الالمانية بدهاء بسمرك والايطالية بسياسة كافور ، وليس الامر بعسير على سلالة كبيرة قديرة كالسلالة العربية فقد كاد يتم على يد عبد القادر ومحمد علي لولا مماكسة الفرنسيس والانكليز وأهل أوربة أجمعين ، فقد كانوا ولا يزالون ساعين الى احباط مساعي العرب خشية من سطوتهم وبطشهم ، ولولا مساعدة الاوربيين ماظل الاتراك متحكمين بهم وبسائر الشعوب ، لقد كانوا جميعهم على الاتراك في أوربة ومعهم في آسية ، وطالما ادعوا حماية النصارى في الشرق ولم يكترثوا لاذاع الارمن وما لبوا لهم دعاء لكنهم لاهواء فاسدة انجدوا أهل اليونان والبلقان وعاونوهم على نيل استقلالهم ، وما كان أولئك أقوى من العرب والارمن وأصلح للحكم ولا هم أهل مدنية وثروة وسلطان ، انما المطامع والمآرب جعلتهم يدوسون حقوق الشرقيين ويدسون لهم ، وهذا يوسف كرم البطل اللبناني قد خانته فرنسة ذات الوجهين واللسانين ، فهي التي عاكسته وشاكسته وقضت عليه بذل الاسر ووحشة المنفى ، فقد لاينته وخادعته حتى استسلم ثم أعرضت عنه إعراضا ، واذ كانت طامعة بامتلاك لبنان خافت ان يفضي الامر اليه ، فأغرت به طائفته وبطريركها فكانوا شر أعدائه وما عرفوا لقدره هذه حقيقة ساطعة وحجة قاطعة فلا اعتراض ولا افتراض

هكذا الفرنسيس والانكليز يفرقون الشرقيين شذر مذر فتل للعرب الحذر الحذر . فاتحدوا اتحادا متينا لتسلم أوطانكم وأعراضكم ، وقاوموا بولرجهم ومدافعهم ومناطيدهم بتاريخكم ولغتكم ودينكم وأخلاقكم ، فاذا حفظتموها حفظتكم وهي عليكم محافظة مادمتم عليها محافظين . قال بسمرك غلبنا الفرنسيس بالمدارس ، والمثل العربي يقول الدارس غلب الفارس ، فادرسوا واثبتوا ولكم حق ويقين حتى يكون يوما فتح من الله ونصر مبين ، حينئذ يجتمع أمراؤكم ويجمعون أوطانا ويبايعون سلطانا ، فتبقى لكل أمير امارته وتعدلي كل ولاية حقها ، فتستقل بادارتها الداخلية وتبعث نوابها وأعيانها الى مجلس الشورى ودار الندوة ، ويكون مرجع الولايات كلها الى حكومة مختلطة عاصمتها احدى المدن العربية الكبرى . وينظم جيش بري وجيش بحري من جميع طوائف العرب ، والمناصب للذين هم أهل لها دون تمييز

في الدين والبقعة فلا فضل لعربي على آخر الا بما أوتيه من المواهب وبما يأتيه من الاعمال ، هذه خطة أرسمها رسما ويمحوها البعض هوسا ووهما ولكنها ستصير حقيقة فالليالي حبالى يلدن كل عجيبة ، ولا بد من ان ينهض العرب كاليابان فما السلالة الصفراء بأفضل من السمراء

هذا اتحاد مقدس يريده كل العرب ولكن الفرنسيس والانكليز لا يريدونه فكأن العباد عبيدهم والبلاد تليدهم ، فيعطوا ويحرموا ما يشاؤن ومن يشاؤن ، أبدا يفتشون الشعوب قبورا ويقولون تمدن همجا ونعمر بورا ، فتراهم يغتصبون ويغتصبون متغزلين بالحرية والمدنية ، فمتى يستريح الناس من هذه الاغنية التي غلب الفرنجي بها الشيطان ، كنا ظننا هم قد تابوا الى الله والمظلومين بعد مالطمتهم ألمانية وحطمتهم ، فاذا هم طامعون بالذراع بعد الكراع وقد أفلتوا من البرثن والاظفار ، بالامس كانوا يشكون ظلمها معولين على الاميركان معولين واليوم يظلمونها بأشد من ظلمها وينقضون عهد نصرائهم اذ تحفزوا لملك رقابهم وحكم بلادهم ، وهكذا يجزون الاحسان بالاساءة ويقابلون الشر بشر أعظم ، لقد نهبوا ألمانية وسلبوها ولو استطاعوا لسحقوها وخنقوها ، فأي فضل لهم اذا لم يعفوا عن مقدرة والعفو من شيم الكرام

أما العرب فكانوا أسوأ الناس حظا ، وما كان الرومي مع العربي الا قطا ، لقد حالفوهم فكانت كل المخالفة من تلك المحالفة ، فبعد ما نصروهم قاموا يحتون في اثلتهم ويقسمون بلادهم إربا إربا ، فيقول الانكليز ليس للعرب الا الحجاز فلنا العراق وفلسطين ويقول الفرنسيس لم تكن سورية يوما عربية فهي لنا منذ الازل والى الابد ، وبعض الخونة يعاونونهم على الاحرار الذين يناوئونهم ، فيا خيبة المسعى والامل ، وهذه قصة الذئب والحمل ، الوفاء قد غاض والحق التوى ، فهل يرحمنا الذي على العرش استوى ، ولم يكتفوا بأن يمالوا من فقرنا بل يريدون ان ينزلوا اليهود في عقر دارنا فيجعلون مقاومة اليهود شغلا شاغلا لنا لنتصرف عنهم ويتيسر لهم اضعافنا واذلالنا . فلا ريب في تعمدهم تفريق العرب لئلا تكون دولة عربية ، نعم انهم لا يريدون ان تكون لهذه الامة دولة تجمعها ورابة ترفعها ، فلا تبقى لاشهم لاني بقعة عربية يلجأ اليها من جورهم ومكرهم . فيرى الموت تحت أية راية في الغربة أفضل من

العيش في وطنه تحت راياتهم ، ان له صبراً جميلا في البلاد الاجنبية ، ولكن لا صبر له وهو غريب في الديار العربية ، فيلعنهم ثلاثا وربما لعن في يأسه أرضا لم تكن يوما لاباتها واذ ينظر الى نزاع أمته وانقراضها يودُّ أن تستقل أو تموت تحت انقاضها

أبداً يمكرون بنا متظاهرين بالعطف علينا وحجتهم في استعبادنا اننا قاصرون ضعفاء ينبغي لنا وصاية وحماية . الارض ارث لنا من آبائنا وأجدادناه ويريدون ان ينتزعوها منا ومن أولادنا ، واذا سألناهم لماذا ؟ أجابونا : نود تمدينكم وتأهيلكم للاستقلال ، فلو كان صدقا ما يقولون لجاءونا بالكتب والاقلام لا بالكتائب والاعلام ، الساعي الى الصلاح لا يحتاج الى السلاح ، فما هذه الحامية والنار الحامية ، وما بالهم يعدوننا أصدقاءهم ويدخلون علينا مسلحين ؟ ألا يجوز أن يكون التمدين صلاحا فيرشدوننا لا جراً أو بأجرة ويتركون لنا السيادة والحكم والحرية في أرضنا ويشاركوننا بتعميرها واستثمارها . لكنهم يريدون ان يملكوا الارض ويقرضوا النسل ليصير العالم فرنسويا وانكليزيا . فاذا قلنا لهم : نريد ان نجتمع ونتحد لنؤلف أمة ، يقولون لنا : لستم صالحين لذلك وأنتم جماعات متفرقة لا زعماء لها يقودونها ولا حكماء يرشدونها . والله يشهد ان تفرقنا وانقسامنا باغراضهم ونقوائهم ، فلو تركونا وشأننا لاصلحنا ذات البين أو تناضلنا حتى يفوز خيارنا ويقرُّ قرارنا . الامم جميعها أخذت نظامها من الفوضى وما نبتغيه من الثورة . وما كانت بالامس أفضل منا اليوم ولكنها تطورت وترقت تدريجا . أما الرجل فالحوادث تظهرهم ولا سود مرهونة لأوقاتها . ويقولون زورا وبهتانا : لستم أهلا لان تستقلوا وتتمدنوا فنقول لهم : ليس الاستقلال من الفلسفة والمنطق لنأخذه عنكم ، فالانسان مستقل ما لم يستعبد ، والعصفور مستقل ما لم يقفص . لكلٍّ حريته في المعيشة ناعمة كانت أو خشنة ، ولكل المخلوقات حكمة في تدبير شؤونها وتحسين أحوالها . فما البشر في أرضهم دون النمل في قريتها ، والنحل في خليتها ، ولنا مدنية قديمة بها اهتديتم فنحن في غنى عن مدنيتكم . سنجدد معالمها ونرفع مناثرها ونضيف اليها حسنات المدنية الحديثة ، ان ما تكرهوننا عليه من مدنيتكم يفسد أخلاقنا ويثقل أعناقنا هذا شرح التمدن فهلا اعتبر العرب بمرآة أبصارهم وبصائرهم . وما كانت بالايام الامن نقاطهم وتنازعهم . فلن يكون لهم مقام بين الشعوب ما داموا متعاندين متباعدين . فهل قلتهم في بدء عهدهم كان لهم قوة باتحادهم واليوم على كثرتهم لا تخشى لهم صولة ولا

تبقى دولة . ولعزتهم وإبائهم لا يخضع أمير منهم لامير والعرب جميعهم أمراء وهذا سبب التخاذل والتقاتل بينهم وتقوية الاجانب عليهم . فلو فطنوا لتعاهدوا وتعاونوا وكانت لهم قدرة بمبايعة عمر لابي بكر ، ولا كان الروم بعد الترك شر خلف لشر سلف ، لقي أبو جعفر المنصور اعرابياً فقال له : يا اعرابي ! احمد الله الذي رفع الطاعون عنكم بولايتنا ، فقال له الاعرابي : ان الله أعدل من ان يجمع علينا خسفاً وسوء كيلة ، فلا يجمع بين ولايتكم والطاعون ، هذا ما يقوله كل عربي لفرنسيس والانكليز بعد رحيل النكبة وحلولهم . فليعلم العرب ان حياة الامة بقوتها الادبية وان لا قوة الا بالاتحاد الوليد بن عبد الله بن طعمة

التطور السياسي والديني والاجتماعي بمصر

لا ينتقل شعب من طور الى طور أعلى منه أو أدنى الا بسير اليه مقدر في الواقع ونفس الامر تقديرا تكون فيه المسببات بقدر الاسباب ، وسواء كان ذلك السير بتأثير حوادث الزمان وتقلب شؤون الاجتماع التي لا يشعر جمهور الشعب بها ولا يفطن لما يترتب عليها من العواقب النافعة أو الضارة ، وإما يشعر أفراد منه ببعض احداث التغير في الاعمال والعادات فيحمدها الناس ويذمها آخرون ، ولا يصل نظر الحامد ولا الذام الى ما سيكون من مستقرها في مستقبل الايام — أو كان السير بنظام وضوع لغرض مقصود وقواد من الزعماء ألفوا الجمعيات وحزبوا الاحزاب ، ونقحوا أنظمة التربية وبرامج التعليم — أو كان مذبذبا بين هذا وذاك

أما الحال الاولى فهي حال تطور الشعوب الجاهلة التي ليس فيها زعماء حكماء يقودونها في سيرها على علم بسنن الكون وشؤون الاجتماع ، بل ينتقل اليها تغير الآراء وتجدد الافكار والانظار من شعوب أخرى على سبيل الاتفاق أو على سبيل القصد من تلك الشعوب ، كما هو شأن الشعوب القوية المستعمرة مع الشعوب الضعيفة التي تطمع هي في بلادها فانها تتعمد احداث التغير في عقائدها وآرائها وعاداتها بالقدر الذي تحل به روابطها الاجتماعية وتفسد عليها مقوماتها ومشخصاتها القومية ، فتصبح متقاطعة على نفسها ، ويجد الطامع فيها ما يطلب من الاعوان له عليها آنا بعد آن .

قال المورد سالسبوري ان مدارس المبشرين أول خطوة من خطوات الاستعمار فهي تحدث في البلاد التي تنشأ فيها انقساما وتفريقا بين أهلها يفقدون به وحدتهم